خطاب صاحب الجلالة بمناسبة اختتام أعمال اللجنة الملكية المكلفة بدراسة وضعية إقليم الدار البيضاء الاقتصادية والاجتماعية

لقد تتبعنا باهتمام كبير أشغال اللجنة المختلطة التي كلفناها بدراسة المشاكل المتعلقة بالدار البيضاء وإقليمها سواء من الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية والسياحية.

وقد أبلغتنا هذه اللجنة النتائج التي سندرسها باهتمام نظرا لكون هذه المشاريع المختلطة تقتضي منا اختيارات وحلولا منها ما يمكن العثور عليه على الصعيد الاقليمي ومنها ما يجب درسه على الصعيد الحكومي وبالأخص في نطاق التصميم الجديد الذي نقبل عليه. إلا أنني أريد أن أؤكد هنا أن إرجاء الحل والبت الى دراسة أعمق ليس معناه إقبار المشاريع أو التخلي عنها ولكن معناه الاتقان والحكمة وحسن الاختيار للصفات التي يجب أن تتسم بها كل القرارات التي من شأنها أن تكون لها مضاعفات ونتائج من النواحي المتعددة التي أشرنا إليها آنفا سياسيا وإقتصاديا، وإجتماعيا، وانني الآن إذ أتوجه الى هذه اللجنة بما فيها من وزراء وممثلين لسكان مدينة الدار البيضاء وإقليمها، وولاة من العامل الى مساعديه في العمالة، في الحقيقة أتوجه بكيفية عامة الى سكان المغرب، وبكيفية خاصة الى سكان الدار البيضاء؛ أتوجه اليوم لأقول لهم ان المدة التي قضيتها في هذه المدينة كانت لي فرصة لكي اطلع على أحوال السكان ولكي أتمكن كذلك من أن أعيش عيشتهم وألمس عن قرب مشاكلهم وحاجياتهم، كذلك كانت فرصة لكي أتجاوز بعض الطقوس والعوائد التي هي مع الأسف أجدني مضطرا إليها نظرا لكثرة الأشغال ولكنني كنت أشتغل في الصباح بينما لا أشتغل في المساء الشيء الذي كان يمكنني من التجول في المدينة وأن أخالط السكان وأطلع على أحوالهم، ويمكنني القول بأنني لم أر في تلك الجولات سوى عواطف المحبة والحنان والصداقة ولا أقول التعلق أو الاخلاص بل أقول الصداقة والمحبة والعاطفة التي يكنها لي كل مغربي ومغربية والتي أريد أن أعبر عن مشاطرتي لهم تلك العواطف.

الشيء الذي أريد أن أقوله في هذه الكلمة الوجيزة هو أن مدة إقامتي هنا كانت مناسبة لأقف على ما يسر وعلى ما لا يسر، حقيقة ان المدينة نظيفة ونقية وجميلة، ويمكنني القول بأن حدائقها ممتازة، ودورها نقية، وجدرانها نظيفة ناصعة وأن حركة السير منظمة.

هذا ما يسر، ولكن والمسؤولية هنا ليست ملقاة على السلطات المحلية، بل أعتقد أن المسؤولية تقع علينا جميعا وعلى رأس الجميع الحكومة، وعلى رأس الحكومة أنا شخصيا لأن المسألة ساءتني جدا وآلمتني أكثر، وسأقول لكم ماهيتها :

منذ أن استرجع المغرب إستقلاله وهو يحاول وضع كل مواطن كيفما كان شأنه صغيرا أو كبيرا، فقيرا أو غنيا، جاهلا أو عالما، موظفا أو غير موظف، أحاول أن أضعهم في مأمن من الجهل ومن الجوع ومن الاستغلال، وقد كنت أعتقد شخصيا بأن بعض أنواع الاستغلال لم تكن موجودة، بل منعدمة، ولكن مع الأسف وجدت أن السلطة في البلاد والحكومة بمجموعها حين تشرع قوانين العمل وتضمن العمل عددا معينا من ساعات الخدمة



وتضمن عدم ارتفاع ثمن الخبز وكذا في الزيت وكذا مجانية التعليم ومجانية الدواء، ورغم هذا فإنها غفلت عن الناحية التي هي مهمة وحيوية بالنسبة لكل رجل، وبالنسبة لكل رب عائلة وللتوضيح أقول بأن المشكل في أساسه مشكل دور السكنى.

لقد تجولت في بعض الأحياء الشعبية بناحية سيدي عثمان على طريق مراكش، ووجدت هناك أراضي تباع بـ 16000 فرنك للمتر المربع الواحد، والحالة هذه أن هناك أراضي تباع في شارع محمد الخامس بـ 6000 فرنك، ووجدت أيضا أن الاستغلال يصل الى أقصى الحدود حينما يباع للفرد 80 متر أو 100 متر فقط بـ 16000 فرنك للمتر الواحد، مما يجعله يعيش في ضيق وضنك فيضطر لأن يبني بالرغم من ظروفه القاسية، فهؤلاء الذين يبنون في تلك الأحياء يكونون ــ في غالب الأحيان ــ ليسوا بدائيين، فهم يعرفون مقدما مصيرهم ويتحملون مسؤولياتهم في هذا المجال، حيث يشعرون بأنهم عالة على المدينة ومن ثمة يفكرون في السكن موقتا بمدن القصدير ريثما يجدون الشغل ولكن وجدت هؤلاء جلهم من الدار البيضاء ــ أو على الأقل ــ عاشوا بالدار البيضاء عشرين أو ثلاثين سنة، وكل واحد منهم يتطلع لأن يؤمن لنفسه ولأولاده مستقبلا في ظل منزل يحميهم بعده، وجل هذه الدور يسكنها عمال أو الطبقة التي هي في الحقيقة محتاجة جدا، حيث أن فيهم من اشتغل 30 أو 40 سنة من حياته وما أن وصل الى 50 سنة تقريبا حتى يتطلع لبناء مسكن، ولكن أين نجده يبني؟ في الواقع انه يبني في أرض تملكها شركة أو أرباب رؤوس الأموال الذين يبيعون له الأرض المفروض أنها موجودة في ناحية « لكريت » أو « سيدي عثمان » بمبلغ 16000 فرنك للمتر، فيضطر هذا المسكين للسلف بعد فقد كل مدخراته في عمره الطويل.

وأخيرا لما تبنى الدار وبكيفية غير سليمة من الناحية الهندسية وكذا نجدها لا تتوفر فيها شروط الراحة، فيجد نفسه إذ ذاك قد رهن رأس المال الحالي، ورهن النصف أو ثلثي ما يتقاضاه عند الأبناك والمؤسسات التي تقرض، ويمكن أن تقول بأن هذا الوضع يوجد أناسا لهم كامل الحق في أن يتساءلوا : عما إذا كانت الدولة التي تعتبر الحامية لهم من الاستغلال المباشر والجهل والمرض والجوع، تحميهم من المستغلين، أنا شخصيا قررت لهذه المدينة أن تعيش في النظام الاسلامي الحقيقي، فالاسلام يضمن الملكية ويضمن حرية المعاملات، إذن فهذه المدينة يلزم أن تكون متوفرة على تلك العوامل، ولكن هناك فرقا بين إنسان يربح بكيفية معقولة، وبين إنسان يمتص دم مواطنه الى آخر قطرة منه لأن الربح العادي، الربح المعقول المطابق للاسلام وللفضيلة الاسلامية فالنبي « ص » يقول : « اليد العليا خير من اليد السفلى » ويقول أيضا : بأن لكل عمل جزاء ولكن الارهاق الذي يصيب الناس، وربح الأموال بكيفية غير معقولة، وامتصاص دم الأخ المسلم، ولذلك فإن الله جل وعلا لا يبارك في هذا الربح، ما دام على تلك الطريقة المزرية وعلى هذا الأساس نجد أن هناك دورا تفرغ وعائلات تنقرض ورؤوس الأموال تنهار، لأنهم لم يتوخوا ضمان حقوق المواطن بواسطة امتصاصهم لدم الرجل الذي تتراوح أجرته بين 40 ألف فرنك أو 50 ألف شهريا حيث يبيعون له أرضا في مكان غير صالح بقدر 16000 فرنك للمتر في حين أن أرضا لبناء عمارة بالدار البيضاء في الأحياء الكبرى تباع بـ 6000 أو 10000 فرنكا فقط، هنا يواجهنا ــ حقيقة مشكل من الضروري أن تنكب وزارة الأشغال العمومية والداخلية والعمالة والمجلس البلدي على بحثه، وبكل صراحة إذا أردنا الاستقرار أن يدوم في المدينة وإذا أردنا من المواطنين الحمد على ما يأتيهم به الله من الخير والشر لابد أن يكون في خلدهم بأن السلطات تحميهم؛ أما أن نكون رعاة دون أن نكون راعين لحقوق الجماعات ولحقوق الضعاف على الخصوص فكأننا نكون نحن قد امتصصنا بأنفسنا دم إخواننا وبالتالي نحن الذين نربح ذلك الربح غير المشروع مع أولائك الذين يبيعون الأرض بـ 16000 فرنك للمتر الواحد

بحي سيدي عثمان، وهذا مما يدل على وجود مضاعفات متعددة منها مشاكل نفسانية، فمثلا الرجل الذي يعمل طول عمره ويؤدي دفعات مالية عن الدار، وقد لا يستطيع إتمام ثمنها مما ينشىء في نفسه عقدة بأن ما يعمله في حياته لا جدوى له.

وقد يموت ويترك المشاكل لأولاده الذين لا يدرون كيف يتصرفون نتيجة لعدم وجود الضمانات التي تهيء لهم جوا من الاستقرار فنجدهم يقسمون ديونا لا مبرر لها وبالتالي يعدمون الربح.

هذا المشكل العمراني يجعلني أطلب منكم أن تزوروا تلك الأحياء، بحيث ان من دخل الدار البيضاء من ناحية مراكش يعتقد أن المدينة كأنها مرتع بل يتهيأ لنا بأنها أقبح من أكادير غداة يوم الزلزال، وقد شرحت لثلاثة من الوزراء عند زيارتنا لعين المكان الوضع الذي يبكي في الحقيقة، بالأخص وأن الدولة أقامت هناك تجهيزات تمكن من أن تكون الناحية على شكل كورنيش لا على الشكل الحالي، فالطرق غير منظمة، ولا أظن أن وزير الأشغال العمومية يجادل في كون تلك الطريق كلفت مليونا من الفرنكات للمتر المربع في إبان تعبيدها، وامتدت الخطوط الكهربائية، ولن نعرف ثمنها وإذا إلتفتنا حوالينا فإننا نجد النتيجة المثيرة نظرا لاستغلال هؤلاء الناس ثم نتيجة عدم سهر مصلحة السكنى والتعمير على نظافة المدينة وطهارتها، وليتبين مدى الطهر حين نجد المواطن يسكن في منزل غير لائق به بعدما عاناه من أجل الحصول عليه الشيء الذي لم يتحقق حتى في إبان الحماية.

وبكل صراحة فإن هذا شيء مزر غير لائق بمجتمع يتطلع للبناء في شتى المجالات : الفنادق والكورنيش، ازدهار السياحة، الماء، توسيع الميناء. الواقع أن هذا ضروري وممتاز غير أنه ما معنى أن تكون ناحية أخرى كأنها مزبلة إن الاسلام لا يقر الطبقية، كما أن المغرب لم يشهدها أبدا، ولن يكون مرتعا للعنصرية الطبقية ما دام هذا المغرب على رأسه ملوك نيتهم العدل والسهر على العدالة الاجتماعية، فنحن لن نقوم ببناء جزيرة تحفها الرفاهية وسط عالم من الفقر، والحالة هذه أن معظم الناس الذين تقوم على كاهلهم ثروة المدينة والذين يقومون في الصباح الباكر بحيث يكونون مصدر ثروة نتيجة لاستغلالهم لعدد من الموارد لكونهم مثلا يركبون في الحافلات الخ، فعلى الأقل يجب علينا أن نحميهم من الاستغلال ومن امتصاص دمائهم ؛ وليس هناك معنى لأن نضمن لهم الشغل ونضمن لهم حق الاضراب ونضمن لهم ثمن السكر وكذا ثمن الخبز حين يلجأ إلى مأواه يجد أن نتيجة عمله طعمة في فم المستغلين، هنا يأتي دور الدولة لكي تقول كلمتها.

وهكذا فأول شيء آمر به الوزارات المختصة أن تجزىء الدار البيضاء إلى مناطق، تلك المناطق على حسب تنظيمها ومستواها ؛ وعلى حسب ذلك يمكن أن تعامل الأثمان، فمثلا ناحية سيدى عثمان التي هي في الطبقة الثالثة ففي اليوم الذي تبني المدينة وتجهز بالشكل اللائق يمكن رفعها إلى الطبقة الثانية أو الأولى. ليس هناك معنى أن نترك الأوربي أو حتى الرجل المثري الذي يستطيع الشراء والسكنى في مستوى راق بـ 16000 فرنك فقط في حين نترك أبناءنا وأحبابنا يشترون بـ 16000 ألف فرنك رغم ضيقهم ؛ وهذا حرام.

فبكل صراحة أنتم تعرفونني في هذا المضمار ؛ إنني رجل لا أحب الديماغوجية ولا أحبها وبالتالي لا أحب الاستهتار بحقوق البشرية، ولا أريد أن يعتقد بعض الناس أنهم يضحكون على العالم وفي الواقع لا يضحكون إلا على أنفسهم وعلى مستقبل عائلاتهم وعلى أسرهم الذين لا يستغلون إلا أموال الحرام ؛ فالويل كل الويل من المال الحرام والويل كل الويل من الأموال المبتزة من الضعفاء، إن القناعة شيء مهم وبكل صراحة لا يمكن لا عمال لجنة الدار البيضاء أن تكون مثمرة وأن تمحي من ذاكرتي النظرة السيئة التي أخذتها عن الدار البيضاء



وتبرهن بأن العمل في الدار البيضاء هو في الواقع عمل متناسق، إلا إذا وضع الحد لهذه الأشغال وأنا لست ضد الربح ولا أريد تجميد الأموال، وأكرر بأنه ليس من الحق أن تباع الأرض في تلك الناحية بـ 16000 فرنك في حين أنها تساوي 3000 فرنك للمتر.

وأنا شخصيا هذا هو نظري، زد على ذلك أنني كما قلت لوزير الأشغال العمومية ووزير الداخلية في إحدى الزيارات بأنه ربما نضطر يوما ما لهدم كل تلك البنايات حيث ان مدينة الدار البيضاء سوف تتوسع في حين أن تلك البنايات المزرية التي هي مع الأسف تضم أكثر من ثلاثمائة ألف ولربما هي خمسمائة ألف ستكون بمثابة مزبلة في وسط الدار البيضاء، والفائدة من نزع الملكية التي سوف نضطر إليها يوما ما بالاضافة إلى نزع ملكية المدينة القديمة للزيادة في شارع الجيش الملكي.

وقد نجد بعد مضي 15 عاما أو 20 عاما أنفسنا مضطرين إلى إعادة نزع الملكية في تلك النواحي نزع الملكية لأنها لم تكن موقوفة على أحد بل هي ملكية وليدة الفقر بحيث اننا سوف ننزع الملكية من الغني والفقير على السواء.

في هذه الحالة ستكون الدولة قد تحملت المصاريف مرتين.

ومع ذلك كله لا أريد أن تفسر كلمتي هذه على أنها موجهة فقط إلى سكان البيضاء، وهنا أتوجه بالأخص إلى المنتخبين الذين أعتقد بأن جلهم قد توجه أثناء الحملة الانتخابية إلى تلك النواحي، كما أن لي اليقين بأن كلماتي وتوجيهاتي ستجد الصدى الحسن في نفوسهم كما أن لي اليقين أن السلطة المحلية وعمالة الدار البيضاء سوف يكون لديها نفس الصدى.

ورغم أن المؤرخين يؤكدون بأن مدينة الدار البيضاء لم تكن في يوم من الأيام عاصمة تاريخية فإنها اظهرت في الظروف الصعاب على أنها في مستوى مسؤولياتها بطابع يؤكد غريزة الشهامة المتأصلة في أبنائها الشيء الذي نجده في المدن العتيقة والقديمة والعواصم التاريخية سمة من التشاؤم والغضب بل هي مجرد أفكار كالتي تروج في أذهان بعض المواطنين بالدار البيضاء، والشيء الذي أريد أن تعلمه مدينة الدار البيضاء أننا نقدر أهميتها فهي تضم مليونا ومائتي ألف نسمة أي العشر من سكان المغرب وهي من ناحية مواردها مهمة ومداخلها مهمة وفي المصاريف أهم، وليكن لنا اليقين بأننا سوف ننكب بجد واجتهاد على تحسين حالتها، على بناء ما يجب بناؤه وتتميم ما يجب تتميمه وتحسين ما تصدع وترميم ما انقرض، وأود أن يعرف الجميع بأني لا أريد لمشاريعهم أن تكون مشاريع مدينة واحدة فقط بل يجب أن تكون على مستوى الوطن كله بحيث أن تكون متناسقة مع مشاريع التنمية الاجتماعية ومحاربة التخلف فمدينة الداز البيضاء ملتقى للكل، فهي حقيقة الرئة والقلب للمغرب من الناحية الاقتصادية فلا يعقل أن تكون للرئة والقلب الاقتصادي للمغرب مشاريع وتصميمات منعزلة عن الجسد كله ؛ فإذا نحن أضفنا مشاريع مدينة الدار البيضاء التي هي الرئة لمشاريع المغرب كله في التصميم العام للجسد سوف تخصص لها النفقات وسيكون توسعها الاقتصادي ونموها الاجتماعي داخلين في إطار عام هو التصميم الثلاثي. وكما قال وزير الداخلية هناك مشاريع تمت دراستها وتمويلها بحيث لم يعد هناك إشكال بصددها، ولم يبق إلا أن نشرع في العمل، بقيت نقطة بين وزير الأشغال العمومية ووزير الصناعة، نقطة صغيرة، ولكن حلها بعد الدراسة سهل.

أما الأشياء التي تمت دراستها وأحدثت وسائل تمويلها سوف نشرع فيها في الحين.

وأهم من هذا كله هو المشروع في إقامة خزان الماء لأن الدار البيضاء محتاجة إلى الماء وكل يوم يتكاثر الاستهلاك فينبغي إعطاء الأسبقية لهذا الخزان.

وأطلب من وزير الأشغال العمومية أن تكون لديه هنا مصلحة مهمة جدا لموظفي السكنى، ويحتاج الأمر إلى وضع تصميم جديد لمدينة الدار البيضاء حسب المحلات فلا ينبغي تجميد الحركة التجارية ولكن ينبغي القضاء على بعض التناقضات، وكلما ارتفع مستوى الناحية للشارع أو المقاطعة ترتفع إذ ذاك الأجور ويفتح الباب للمعاملات.

كذلك فمن الناحية السياحية يجب عليكم أن تفكروا في ماذا ستعملون، فمدينة باريس كما تعلمون لها مصاريف أكثر ، كذلك الأمر بالنسبة لنيويورك ولندن من مصاريف الدار البيضاء، ولكن لها مداخيل لأن السياح يزورونها من جميع أنحاء الأرض مدينة يقصدها الناس كثيرا فكل عمل سياحي تنجزونه في الدار البيضاء ليس بالعمل غير المجدي، بل إنه سيؤتي أكله.

كيفما كان الحال سأغادر الدار البيضاء وأنا مطمئن على هذه المدينة لأن المدة التي قضيتها فيها والشيء الذي رأيته يؤكد أنها مدينة طاهرة نقية حساً ومعنى، ونشيطة ؛ فعمالها يعملون وموظفوها يعملون، سكانها لا ينقطعون عن العمل ليل نهار، والحركة في استمرار تنبيء بالخير وتجعلني أدعو الله أن يعطي مدينة الدار البيضاء وسكانها كل ما يصبون إليه من رفاهية وعز وتوسع عمراني واقتصادي واجتماعي وأن يحفظهم ويجعلهم في مأمن من كل مستغل ومن كل إنسان أو جماعة غير قانعة ولا تتصف ولا تمتاز بالفضيلة الاسلامية، تلك الفضيلة التي تحث على العمل وتأمر لكل عمل بما يقتضيه من مكافأة وربح، ولكن من جهة أخرى تمنع وتجعل المجتمع الاسلامي في مأمن من الاستغلال غير الاسلامي، غير النزيه.

وأملي أن نجد في السنين المقبلة تلك النواحي من الدار البيضاء والتي تحدثت عنها سابقا، طاهرة جميلة واسمع أن سكانها حتى إذا أدوا أو اقترضوا يشعرون بالسعادة والفرحة لأنهم سوف يكونون — على الأقل — هم الرابحين وغير «مشموتين».

والرفاهية الفكرية لأي مجتمع هي التي تضمن الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي لكل دولة.

فجميل أن نربي المغاربة، وجميل أن نضع القوانين الزجرية، وجميل أن نؤسس الشرطة، وجميل أن تكون هناك السجون وجميل أن تكون هناك وزارة للعدل، لأنه يزع الله بالسلطان ما لا يزعه بالقرآن ؛ هذا شيء معروف، ولكن من جهة أخرى يجب أن نضمن للمواطنين كرامة العيش، ومن صفة الكرامة أن نحب الآخرين فالذي نحبذه لأنفسنا نحبذه للآخرين، والذي نشمئز منه لا ينبغي أن نحبه للآخرين وهذا هو مقياس الايمان، أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك ؛ فإذا نحن عملنا دائما على أن نحب لاخواننا ومواطنينا ما نحبه لأنفسنا تمكنا إذ ذاك من أن نعلم حق اليقين أن مطامحنا سوف تتمشى مع جهودنا لكي نصل إلى مجتمع يرضي الله ورسوله وضمائرنا والأجيال المقبلة.

والسلام عليكم ورحمة الله.

ألقي بالرباط

الاثنين 25 جمادى الثانية 1386 — 10 أكتوبر 1966